مطرانية الروم الأرثوذكس في بيروت

Orthodox Archdiocese of Beirut

الرسالة

(عبرانيين ٦: ١٣–٢٠)

يا إخوةُ إنَّ اللهَ لمَّا وعدَ إبرهيمَ إذ لم يمكن أن يُقسِمَ بما هو أعظمُ منه أقسم بنفسِه* قائلاً لأُبارِكنَّك بركةً وأُكثِّرنَّك تكثيراً* وذاك إذ تأنَّى نالَ الموعِدَ* وإنَّما الناسُ يُقسِمونَ بما هو أعظمُ منهم وتنقضي كلُّ مشاجرةٍ بينهم بالقَسَمِ للتثبيت* فلذلك لمَّا شاءَ اللهُ أن يزيدَ وَرَثةَ الموعِدِ بياناً لعدمِ تحوُّلِ عزمه توسَّط بالقَسَم* حتى نحصُلَ بأمرَيْنِ لا يتحوَّلان ولا يمكنُ أن يُخلِفَ اللهُ فيهما على تعزيةٍ قويَّةٍ نحن الذين التجأنا إلى التمسُّكِ بالرجاءِ الموضوع أمامنا* الذي هو لنا كمِرساةٍ للنفسِ أمينةٍ راسخةٍ تدخلُ إلى داخلِ الحجاب* حيثُ دخلَ يسوعُ كسابقٍ لنا وقد صار على رتبةِ ملكيصادقَ رئيسَ كهنةٍ إلى الأبد.

أحد القديس يوحنا السلّمي

كان القديس يوحنا السلّمي، المعروف أيضاً بيوحنا السينائي، من كبار معلّمي مناهج الحياة الروحية. وهو راهب عاش في القرن السابع في دير جبل سيناء. نعيِّد له في الثلاثين من آذار، وفي الأحد الرابع من الصوم الكبير.

ليس لدينا أي معلومات عن حياة القديس. ولكن في متناولنا سيرة قديمة له كتبها راهب يدعى دانيال من دير رايثو في سيناء. نعرف من هذه السيرة أن القديس يوحنا حضر إلى دير العلّيقة في جبل سيناء، وهو دير القديسة كاترينا اليوم، وصار راهباً مبتدئاً فيه في سن السادسة عشرة. تعلّم عن الحياة الروحية على يد الراهب الشيخ مارتيريوس وانكفأ من بعد وفاته إلى منسك على سفح الجبل لممارسة نسك أعظم. عاش في عزلة نحو عشرين عاماً يطالع بلا انقطاع سير القدّيسين حتى صار من أغزر آباء الكنيسة علماً واعتلى ذرى الحياة الروحية. ولمّا بلغ الخامسة والسبعين من العمر حثّه رهبان سيناء على أن يصبح رئيساً على ديرهم فقبل.

لا نعرف من نتاج القديس يوحنا الأدبي سوى كتاب «سلّم الفضائل» أو «السلّم إلى الله». وقد ألّفه في أوائل القرن السابع نزولاً عند طلب يوحنا رئيس دير رايثو الواقع على ضفاف البحر الأحمر. وله أيضاً كتاب آخر قصير بعنوان «إلى الراعي» يصلح أن نعتبره ملحقاً لكتاب «السلم».

العدد ٢٠١٣/١٥
الأحد ١٤ نيسان
الأحد الرابع من الصوم
أحد القديس يوحنا السلّمي
تذكار الرسل أرستسرخس وبوذس وتروفيموس
اللحن الرابع
إنجيل السَحَر الأول

وُضِع كتاب «السلّم» تلبية لحاجة رهبان دير مجاور، إلا أنّه سرعان ما أصبح من الكتب المقروءة والمحبوبة على امتداد الشرق المسيحي، لا سيما في زمن الصوم الكبير. وهو غالباً ما يُقرأ في الأديار الأرثوذكسية على المائدة أيام الصوم الكبير.

يصف كتاب «السلّم» كيف يرفع المرء روحه وجسده إلى الله عبر اكتساب الفضائل النسكية. يستخدم السلّمي مَثَل سلّم يعقوب كإطار لتعاليمه الروحية. كلّ فصل من الكتاب هو بمثابة «درجة» تتناول موضوعاً روحيًّا مختلفاً. وفي السلّم

الإنجيل

(مرقس ٩: ١٧–٣١)

في ذلك الزمان دنا إلى يسوعَ إنسانٌ وسجدَ له قائلاً يا معلّمُ قد أتيتُك بابني به روحٌ أبكم* وحيثما أخذهُ يصرعُهُ فيُزبِدُ ويصرِفُ بأسنانه ويَيبس. وقد سألتُ تلاميذَك أن يُخرِجوهُ فلم يقدروا* فأجابه قائلاً أيُّها الجيلُ الغيرُ المؤمنِ إلى متى أكونُ عندكم حتى متى أحتمِلكم. هلمَّ بهِ إليَّ* فأتوهُ به. فلمَّا رآهُ للوقت صرَعهُ الروحُ فسقطَ على الأرضِ يتمرَّغ ويُزبِدُ* فسأل أباهُ منذ كم من الزمان أصابه هذا* فقال منذ صباهُ، وكثيراً ما ألقاهُ في النار وفي المياه ليُهلِكَهُ. لكن إن استطعتَ شيئاً فتحنَّنْ علينا وأغِثْنا* فقال له يسوعُ إن استطعتَ أنْ تؤمِنَ فكلُّ شيءٍ مُستطاعٌ للمؤمن* فصاحَ أبو الصبيّ مِنْ ساعَتهِ بدموعٍ وقال إنّي أُؤمِنُ يا سيّد. فأَغِثْ عدم إيماني* فلمَّا رأى يسوعُ أنَّ الجمعَ يتبادرون إليهِ انتهرَ الروحَ النجسَ قائلاً لهُ أيُّها الروحُ الأبكم الأصمُّ

ثلاثون درجة توازي عمر المسيح حتى معموديته وبداية خدمته الأرضية.

ينقسم كتاب السلّم إلى ثلاثة أجزاء. تتضمّن الدرجات السبع الأول فيها (الدرجات ١–٧) فضائل مبدئية ضرورية للحياة النسكية، بينما تقدّم التسع عشرة التالية (الدرجات ٨–٢٦) الإرشادات لتخطّي الأهواء وبناء الفضائل. أما الدرجات الأربع الأخيرة (الدرجات ٢٧–٣٠)، فتختصّ بالفضائل الأسمى التي هي غاية الحياة النسكية. والدرجة الأخيرة في السلّم، والتي تفوق الصلاة والسكينة وحالة اللاهوى، هي المحبّة.

فلنسلّط الضوء على بعض أقوال القديس يوحنا السلّمي، والتي تضعنا في جوّ كتابه:

«الحقد ثمرة الغضب، وادّخار للخطايا، ومقت للبرّ، واضمحلال للفضائل، وسمّ للنفس، ودودة للعقل، وخزي للصلاة، وقطع للتضرّع، واغتراب عن المحبة، ومسمار مبجّن في النفس، ومرارة محبوبة، وخطيئة مستمرة، ومعصية لا تنام... من سكّن غيظه أبطل حقده. ومن اقتنى المحبة فقط أقصى الحقد... كما أنّه بظهور النور يتبدّد الظلام، كذلك من عبير التواضع تختفي كلّ مرارة وغضب...

المتكبّر رمانة مهترئة في داخلها تلمع بهية في ظاهرها... ينشأ الغرور من نسيان الزلّات لأن ذكرها يؤول إلى الاتضاع... الرجل المتعظّم القلب يرتاح أن يترأس على غيره... في قلوب المتكبرين تنشأ أقوال التجديف، وفي نفوس المتضعين تأملات سماوية...

إذا ما قمنا نصلّي قامت علينا تلك الأفكار النجسة والممتنع النطق بها. لكنها تنصرف حالاً إذا تابعنا صلاتنا لأنها لا تحارب محاربيها. الصلاة هي مصدر وأساس لبركات لا تحصى هي قوية للغاية... الصلاة مقدّمة لجلب السرور.

لا تعمد إلى الإكثار من الأقوال في الصلاة لئلا يشتت عقلك في البحث عن ألفاظ التضرّع. فإن كلمة واحدة من العشار قد استرضت الله، وصرخة إيمان واحدة خلّصت اللص. كما أن النار مبيدة للقصب كذلك فإنّ الدموع النقية تبيد كلّ الأوساخ الظاهرة والخفية.

طريق الصوم يؤدّي لطريق النقاوة. الصوم هو بـ ترالشهوة والأفكار الشريرة، وهو نقاوة الصلاة، واستنارة النفس، وضبط العقل، والتخلّص من قساوة القلب، وهو الباب للندم...

لا تدهش إذا سقطت كلّ يوم، لا تستسلم تاركاً الصراع، بل قف وقوف الشجعان، فالملاك الذي يحفظك سيمجّد بالتأكيد صبرك.

بداية التحرّر من الغضب هي صمت الشفتين مع اضطراب القلب. توسّط زوال الغضب هو صمت الأفكار مع اضطراب النفس. أما كمال الانتصار على الغضب فهدوءٌ للنفسِ رصينٌ وقتَ هبوب رياح نجسة.

الوداعة حالة راسخة للنفس تبقى فيها غير متأثّرة، سواء بالخبر الطيّب أم بالخبر الرديء، سواء بالإهانات أم بالكرامات. الوداعة والتواضع هما الصخرة الموضوعة على شاطئ بحر الغضب، التي تتكسّر عليها أمواج ذلك البحر الهائج وهي ثابتة كالجبل لا تتحرك. الوداعة مفتاح باب المعرفة لأن الله «يعلّم الودعاء طرقه».

الغربة هي الانفصال عن كل شيء لجعل الفكر غير منفصلٍ عن

أنا آمرك أنِ اخرُجْ منه ولا تعُدْ تدخلُ فيهِ* فصرخ وخبَطهُ كثيراً وخرج منه فصار كالميّتِ حتى قال كثيرون إنَّه قد مات* فأخذ يسوعُ بيدهِ وأنهضهُ فقام* ولمَّا دخل بيتاً سألهُ تلاميذُهُ على انفرادٍ لماذا لم نستَطِع نحن أن نُخرِجَهُ* فقال لهم إنَّ هذا الجنسَ لا يمكن أنْ يخرُجَ بشيءٍ إلاَّ بالصلاة والصوم* ولمَّا خرجوا من هناك اجتازوا في الجليل ولم يُرِد أن يَدْريَ أحدٌ* فإنَّه كان يعلّمُ تلاميذَهُ ويقول لهم إنَ ابنَ البشر يُسلَمُ إلى أيدي الناس فيقتلونَه وبعد أن يُقتَل يقومُ في اليوم الثالث.

تأمل

«وأما هذا الجنس فلا يخرج إلاّ بالصلاة والصوم» (متى ١٧: ٢١).

إنّ الصلاة تحدّد بأنّها فعل تقوم به نفس تقيّة تطلب به من الله عزّ وجلّ الخير المفيد لها. فهي إذاً ليست ترداد كلمات منظّمة لهذه الغاية، لأن الله لا يحتاج إلى خطب رنانة ولا إلى كلمات فصيحة إذ إنّه يعرف ما هو مفيد لنا. وهكذا يمكننا أن نحدّد الصلاة بأنّها عمل يتمّ في ضمير الإنسان وفي الله... خادم الله هو الذي يقف بين الناس بجسده أما عقله ففي السموات يقرع بابها بصلاته».

الأحد الرابع من الصوم

فيما نحن نتقدّم في مسيرة الصوم الأربعيني المقدّس، نصل مع الأحد الرابع إلى الانطلاقة الفعلية نحو الآلام الخلاصية والقيامة المجيدة، وهذا ما اختُتِم به المقطع الإنجيلي الذي وضعته لنا الكنيسة في هذا اليوم «إن ابن الإنسان يُسلَم إلى أيدي الناس فيقتلونه وبعد أن يُقتل يقوم في اليوم الثالث» (مر ٩: ٣١).

فقبل الوصول إلى أحد الشعانين، تضع لنا الكنيسة نموذجين للجهاد الروحي وللتوبة المعاشة، اللذين ينبغي أن يمارسهما المؤمن ليصل إلى القيامة وسُكنى الملكوت. هذان النموذجان يجسّدهما القديس يوحنا السلّمي (٣٠ آذار والأحد الرابع من الصوم) كاتب كتاب «سلّم الفضائل» التي يرتقيها المؤمن للوصول إلى القداسة، والذي جسّد في حياته التوبة فصار المَثَل الأعلى الذي علينا أن نضعه نصب أعيننا خلال الصوم، وأمُّنا البارَّة مريم المصرية (الأول من نيسان والأحد الخامس من الصوم) التي «أعطت التوبة كل لمعانها وأظهرت دورها على إصلاح الإنسان الساقط في الخطايا» وذلك من خلال تنسُّكها في الصحراء. فالقديسان كلاهما يعرضان أمثلة حيّة من الحياة في المسيح حسب نمطي النسك والتوبة الجوهريين.

ظهر تذكار القديس يوحنا السلّمي ابتداءً من القرن الرابع عشر وذلك رغبةً في تتميم هيكلية الثريودي وذلك بتأثير من البطاركة الهدوئيين نيكيفورس وكالستوس وفيلوثيون (القرن ١٤–١٥)، وثانياً لأنّه مع بدء الصوم اعتادت الأديرة أن تقرأ سلَّم أقواله. تجدر الإشارة إلى أن الكنيسة قبل القرن الرابع عشر كانت قد خصصت الأحد الرابع لمَثَل السامري الشفوق (لو ١٠: ٣٠–٣٧) وقد حافظت الكنيسة عليه من خلال القوانين التي تُقرأ في خدمة صلاة السَحَر: «إن اللاوي لم يقتدر أن يمسح منظفاً جراحاتي لكن أنت أيها المخلّص الصالح وافيت إليّ متريثاً ودفقت عليّ زيت مراحمك واشفيتني كطبيب حاذق فائق المعرفة» (الأودية التاسعة). وفي هذا تذكير مرّة ثانية بأهميَّة الآخر في حياة الإنسان المسيحي وضرورة الإعتناء به «الحق أقول لكم بما أنكم فعلتموه بأحد إخوتي هؤلاء الأصاغر فبي فعلتم» (متى ٢٥: ٤٠). وهذا ما كنّا تعلمناه قبل بدء الصوم الكبير.

يتكلّم القديس يوحنا السلَّمي في كتابه على الحياة الروحية التي يشبّهها بسلَّم من ثلاثين درجة يصل إلى القمة قليلون ممّن يتسلقونها. (الثلاثة الأولى تبحث في الإغتراب عن العالم، بينما الأربع الأخيرة تبحث في الإتحاد بالله، تتوسطها ثلاث وعشرون درجة أعلاها الوداعة والتواضع والتمييز). هذا الترتيب الكنسي يأتي ليقول لنا في النصف الثاني من الصوم أنَّ الإنسان لا يستطيع الوصول إلى القيامة فقط بمجرّد الإمساك عن الطعام. أن يتحلّى المسيحي بالفضائل ليس بأمرٍ صعب، بل يتطلب جهاداً روحياً. «إنَّ يوحنا الذي، وفي حياته كان

داخله، وهي عمل يمتدّ إلى كلّ الأعمال التي تنسج حياة الإنسان. فإذا أكل الإنسان خبزاً، أو شرب خمراً أو لبس ثوباً يصلّي شاكراً الله على إحسانه ومحبته. وعندما يأتي المساء وتميل الشمس إلى المغيب يصلّي ويشكر الله على النور الذي يهبه الله للعالم، ثم يتأمّل في السماء ونجومها فيعظّم الله على صنيعه ويشكره على الراحة التي يهبها الله في النوم في الليل. وهكذا تصبح حياة الإنسان صلاةً دائمة.

إنه واجب علينا أن نصلّي دوماً وبدون انقطاع. «صلّوا بلا انقطاع» (١ تسا ٥: ٧) وهل ذلك بالإمكان؟ إنّ الوصول إلى قوّة الصلاة ودوامها استطاعتنا لو شئنا. وهي ليست شيئاً نستحدثه أو نخلقه خلقاً وإنما يمكن ممارستها في كلّ عمل نقوم به مدى الحياة وفي كلّ لحظة من لحظاتها.

الصلاة إذاً هي التصاق بالله في جميع لحظات الحياة ومواقفها فتصبح الحياة صلاة واحدة بلا انقطاع ولا اضطراب.

القديس باسيليوس الكبير

ً بالجسد، ولئن ظهر الآن ميتاً فاقد النسمة، فهو حي إلى الأبد. وإذ ترك مؤلفه الذي به ارتقى إلى العلاء وصعد أعلن به جلياً منهج الصعود العلوي لكل أحد» (سنكسار الأحد الرابع من الصوم).

في القداس الإلهي تكلّمنا رسالة القديس بولس الرسول إلى العبرانيين (٦: ١٣–٢٠) على صبر إبرهيم وطول أناته وعلى التحقيق النهائي للمواعيد التي وعده بها الله. أما المقطع الإنجيلي (مر ٩: ١٧–٣١) فيصف لنا شفاء الإبن الأخرس الذي مسّه الشيطان بعد أن قدّمه أبوه للرب يسوع، وكيف أنّ الشفاء لا يمكن أن يحصل إلاّ من خلال الإيمان الحقيقي، لذلك قال يسوع للأب: «إن كنت تستطيع أن تؤمن، كل شيء مستطاع للمؤمن. فللوقت صرخ أبو الولد بدموع وقال أؤمن يا سيّد فأعِن عدم إيماني» (مر ٩: ٢٣–٢٤). وعندما سأله تلاميذه أجابهم قائلاً: «هذا الجنس لا يمكن أن يخرج بشيء إلاّ بالصلاة والصوم» (مر ٩: ٢٩). يقول القديس مكاريوس الكبير: «إنّه يوجد في داخلنا إنسان آخر غير هذا الإنسان المنظور، وتوجد عيون داخلية قد أعماها الشيطان وآذان قد أصمَّها، لذلك جاء يسوع لكي يجعل هذا الإنسان الداخلي صحيحاً معافى».

الصلاة والصوم أمران متلازمان. يعرّف القديس يوحنا السلّمي الصلاة بأنّها «عِشْرة مع الله» فنثبت في المسيح وهو يثبت فينا (يو ٦: ٥٦). ولكن عدو الصلاة، أي الأفكار الشريرة والأهواء، تشوّه صفاء الذهن وتمنع الصلاة من الإستمرار. من هنا يأتي الصوم الذي هو جزء من الحياة الروحية ليضبط اللذات، فالصوم «ينوّر الذهن ويقوّي الروح ويضبط العواطف ويدجّن الأهواء»، وبالتالي الصوم هو «صلاة الجسد» كما يقول أحد اللاهوتيين. ويتابع: «كما يصلّي الذهن بالكلمات يصلّي الجسد بالجوع الاختياريّ من أجل الله. الجوع صلاة الجسد، كما الكلمات هي صلاة الذهن». عندها فقط يستطيع الإنسان أن يطرد شياطين أهوائه وملذاته ويهزم الأرواح الشريرة.

يقول القديس سيرافيم ساروفسكي إنّ هدف حياتنا هو امتلاك الروح القدس «لكي تظهر حياة يسوع أيضاً في جسدنا» (٢ كو ٤: ١٠). فالصلاة والتوبة والصوم وامتلاك الفضائل تساعدنا في مسيرتنا نحو القداسة وهذا ما يقوله الرسول بولس «لنطهّر ذواتنا من كل دنس الجسد والروح مكمّلين القداسة في خوف الله» (٢كو ٧: ١). لذلك تدعونا الكنيسة في النصف الثاني من الصوم إلى تكثيف جهادنا في الصلاة والصوم لنصل إلى السجود للقيامة المجيدة ونشرب المشروب الجديد الذي للحياة الأبدية.

بالامكان الإطلاع على النشرة أسبوعيًا على صفحة الإنترنت:

www.quartos.org.lb